

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

مقدمة الطبعة السابعة

لقد رأيت أن أقوم في هذه الطبعة الجديدة بمراجعة تامة منهجية ومادية لجميع أبواب الطبعة السابقة وفصولها . أقول : وقفت موقف الناقد مما كتبت من قبل . وقد رأيت أن أعرض لمجموعة المناهج التي يستخدمها ويطبّقها علماء الاستشراق وبعض العلماء الباحثين من العرب . وقد ناقشت هذه المناهج وهذه التفسيرات . وهذه الرؤى . وتبين لي أن المنهج الذي أختطه أنا ، والتفسير الذي قدمته هما المنهج والتفسير الصحيحان : المنهج التاريخي المحايد والتفسير الموضوعي - ولا أنكر أبداً أنني ألتجأ إلى المناهج الأخرى ، إن كان ثمة حاجة إليها . أما أن نفتعل منهجاً أو نقصر أنفسنا على تفسير خارج على الموضوعية ، فإننا نصل إلى نتائج واهية مضحكة ، لا تقدم لنا التفسير الحقيقي للفكر الإنساني عامة وللإسلامي خاصة .

أما مادة الكتاب ، فقد غيرت الكثير مما ورد في الطبعة الأولى ، وحذفت الكثير من الفقرات ، وقومت الكثير من المصطلحات . بحيث تبدو المادة في صورة أخرى . كما قسمت هذه الطبعة إلى أبواب وفصول وفقرات . مما يسهل على القارئ . النظر في الموضوع والتأمل فيه .

وما زلت أقول : إنه ما زال للتصوف أثره الكبير في حياتنا المعاصرة . إنه لم يمّت أبداً . ولا بد إذن أن نتعرف أصوله ، وأن نتفهم نشأته وتطوره . وأرجو أن أوفق إلى متابعة الكتابة فيه ، وأن أقدم للمكتبة العربية - الجزء الرابع - من نشأة الفكر محتوياً على تطور الحياة الروحية في الإسلام - في القرنين الثالث والرابع الهجريين - وهما من أهم عهود الإسلام في تقويم الحياة الروحية الإسلامية . والله ولي التوفيق .

الرباط ق :

الثاني من رمضان عام ١٣٩٧ هـ .

والثامن عشر من أغسطس عام ١٩٧٧ م .

دكتور على سامي النشار

1. $\frac{1}{x^2} = x^{-2}$

2. $\frac{1}{x^3} = x^{-3}$

3. $\frac{1}{x^4} = x^{-4}$

4. $\frac{1}{x^5} = x^{-5}$

5. $\frac{1}{x^6} = x^{-6}$

6. $\frac{1}{x^7} = x^{-7}$

7. $\frac{1}{x^8} = x^{-8}$

8. $\frac{1}{x^9} = x^{-9}$

9. $\frac{1}{x^{10}} = x^{-10}$

10. $\frac{1}{x^{11}} = x^{-11}$

11. $\frac{1}{x^{12}} = x^{-12}$

12. $\frac{1}{x^{13}} = x^{-13}$

13. $\frac{1}{x^{14}} = x^{-14}$

سَمِعَ اللهُ الرَّعْمَنُ الرَّعْمَنُ

مقدمة الطبعة الأولى

إن من أشق الأمور حقيقة تأريخ نشأة الحياة الروحية في الإسلام وتطور هذه النشأة وذلك لسببين هامين : أما السبب الأول فإن الباحثين في هذه الحياة ومعظمهم من المستشرقين ، لم يكتبوا - ما كتبوا عنها - متابعين منهجاً موضوعياً . لم يكن غاية المستشرقين اكتناه حقيقة هذه الحياة بقدر ما كانت غايتهم سلبها عن جوهرها الحقيقي - الإسلام . فانتبت أبحاثهم إلى أن الحياة الروحية في الإسلام ترتبط بكل شيء ما عدا الإسلام . أثارها اليهودية والمسيحية ، كما أقامتها البوذية واليوجا أو الجينا ، والجيمونيفيست الهندي والأديان الفارسية ، زرادشت وماني ، وأثرت فيها الصابئة والحرنانية ، وصبغتها الأفلاطونية المحدثة اليونانية . . . وهكذا انتهت أبحاث هؤلاء المستشرقين - إلا فيما ندر - إلى أن كل طارئ على حياة العباد والزهاد والصوفية ، وكل عارض على حلقاتهم المتعددة ، إنما هو الجوهر . . . أما الجوهر . . . أما الإسلام ، فلم يكن بشيء ذي بال في حياتهم ، وفي نمط سلوكهم . . . وفي تراثهم العام الملىء . . . وكذب هؤلاء المستشرقون ، أو بمعنى أخف . . . كانت أبحاثهم تعبيراً عن ذاتهم هم ، أو تحقيقاً لأفكار سابقة . أرادوا صيغ الحياة الزهدية والصوفية في الإسلام بها . . . وكان رائد هؤلاء الكاذبين جولدسيهر . . . يهودى مجرى متعصب ، رأى أن يربط زهاد الإسلام وصوفيتهم بكل شيء غير إسلامي - فالزهد إنما هو انعكاس للديرية المسيحية ، وأوائل المتصوفة أو ما أسميتهم في هذا الكتاب - بالزهاد الضارين نحو التصوف إنما هم صورة بوذا . . . ثم إن التصوف - بعد - إنما هو مزيج من المسيحية واليهودية والفلسفة اليونانية . . . ثم ظهر نيكلسون . . . وتابع هذا المنهج السقيم . . . وربط التصوف بالأفلاطونية المحدثة من ناحية ، وصور المسيحية المختلفة من ناحية أخرى . . . ثم ربط معروفاً الكرخي - وتحت تأثير نصوص لم يحسن قراءتها في الفارسية - بالندائية . . . وأدلى ماسينيون بدلوه . . . فكل شيء في حياة الروح عند المسلمين إنما هو في صورة مسيحية . كذلك فعل آسين بلاسيون . فوضع نظرية الأثر والمؤثر . . . ولست أستقرى هنا كل أبحاث المستشرقين ، وإنما أذكر نماذج فقط من هذا المنهج الأعرج الأعور السقيم ، فلم ينظر هؤلاء الأمر إلا

بعين واحدة ، بعين ملئت بالحقد على الإسلام وأصائله كدين وكفكر . . . كانت أبحاث هؤلاء - بالرغم من صوغها في صورة البحث العلمي البحت وادعائها أنها أبحاث نزيهة في تاريخ الأديان المقارن . . . إنما هي بقايا من علم الدفاع عن الدين المسيحي الذي بدأ في العصور الوسطى المسيحية ، وكانت غايته إقامة حرب صليبية ثقافية ، بجانب الحرب الصليبية العسكرية . وقد انتهى التصوف - كما نعلم - إلى سيد مفكرى الإسلام جميعاً - أبو حامد الغزالي - وأقام أبو حامد الغزالي - التصوف الإسلامي - في صورته النهائية - علماً للأخلاق عند المسلمين . فتبع المستشرقون نشأة التصوف . . . وصبغوه بالأثر المسيحي ، كما تبعوا تلقى أبي حامد الغزالي . لهذا التراث وتجربته الشخصية فيه وحاولوا إثبات العناصر المسيحية في تصوفه . . . فكانت المحاولات المبتسرة ، والمقارنات المضحكة المبكية . والجهل الصارخ في فهم النص العربي ، وتمزيقه وتشقيقه . وحقيقة الأمر في الغزالي وغيره من صوفية أهل السنة العطاء ، وبخاصة الأشاعرة . . . أنهم نبعوا من القرآن وصدروا عن الروح الحمدي . فإذا رأوا في نصوص الأمم السابقة ، ما يؤيد النص القرآني أو الحديث الحمدي . قبلوه ووضعوه مؤيداً لفكرتهم الإسلامية . والدين في النظرية الإسلامية واحد ، والأنبياء تابعوا ، يؤيد الواحد منهم الآخر ، فلا ضرر ولا ضرار إذا أيد أثر يهودي أو مسيحي فكرة الزهد الإسلامية والمنبثقة عن محمد ﷺ وصحابته ، أو فكرة الحب الإسلامية ، التي يعلنها ويقرها أولاً القرآن والسنة . لم يفهم الأوروبيون هذا أبداً ، ولم ينفذوا إلى أعماق المسائل . . . فكان أمام الباحث التزيه - كما قلت - مشقة في كتابة الحياة الروحية في الإسلام وبخاصة نشأتها .

أما السبب الثاني - في صعوبة الكتابة في نشأة الحياة الروحية في الإسلام - فهو طبيعة الموضوع نفسه ، فقد تكثر المصادر القديمة في ناحية ، وتقل أو تكاد تنعدم في ناحية أخرى ، بحيث تكبر الفجوات أحياناً . . . ثم إن الموضوع نفسه رزح تحت سيطرة الكثير من الأساطير والأعاجيب ، وتفنن المؤرخون القدامى في المبالغات . والخلط بين الأخبار المتقدمة والأخبار المتأخرة ، علاوة على التزييف والوضع . . .

كل هذا دعاني إلى محاولة كتابة تاريخ كامل للنشأة ، فقررت أن أعرض لمدارس الزهد ومدارس التصوف ، في الأقاليم الإسلامية المختلفة . وأقدم تاريخاً شاملاً لهذه المدارس ، مبيناً ما يميز كل مدرسة عن الأخرى ، متبعاً رجالها ، موضحاً للنظريات التي انبثقت عن كل مدرسة ، ثم أبين النظريات العامة للزهد ، ثم للتصوف .

وقد رأيت أنه من الممكن اعتبار القرنين الأول والثاني الهجريين وحدة متكاملة تمثل تيار الورع

الذاتي الذي انقلب زهداً . . . وانتقل هذا الروع . . . إلى زهد منظم . . . أخذ يضرب في أواخر القرن الثاني نحو التصوف . ثم نعتبر القرنين الثالث والرابع وحدة أيضاً متكاملة ، تمثل تيار التصوف الخالص ، حيث ظهر التصوف - كعلم إرادة النفس وأخلاقها . . . ولقد كانت نشأة التصوف وتطوره في هذه القرون الأربعة . أصبح بعدها علماً ومنهجاً . . . ونحن نعلم أنه ما لبث أن انقلب منذ القرن الخامس إلى طريقتين : طريق أخلاق على يد الصوفية من الأشاعرة ، فكون علم الأخلاق الإسلامي حتى عصورنا الحاضرة ثم طريق فلسفي على يد الصوفية من الفلاسفة ، فأصبح فلسفة تدخل في الإطار العام لتاريخ الفلسفة . . . كما نعلم . . . أن الطرق الصوفية تكونت ، وأصبح لها خطرهما في حياة المسلمين حتى أيامنا هذه .

ونحن في سلسلة «نشأة الفكر الفلسفي في الإسلام» لا نعني سوى بالنشأة ولذلك سيقصر بحثنا على القرون الأربعة الأولى ، وما أضخم ما فيها من تراث روحي أصيل . وقد خصصت هذا الكتاب . . . الجزء الثالث من نشأة الفكر الفلسفي في الإسلام «لبحث نشأة الزهد وتطوره في القرنين الأول والثاني الهجريين ، وكنت أرجو أن تتسع صفحاته لتأريخ مدارس الروح الإسلامية الأولى جميعها في هذين القرنين . ولكن الحيز الذي خصص للكتاب لم يتسع لتأريخ هذه المدارس كلها . فتوقفت عند شخصية إبراهيم بن أدهم الأستاذ الحقيقي لمدرسة الزهد في خراسان ، ثم إنني لم أستطع أن أضمن صفحات الكتاب مدارس الزهد في الجزيرة العربية ، ومصر ، والمغرب والأندلس . وسأعرض لهذه المدارس في الجزء الرابع من نشأة الفكر . والذي أرجو . أن يصدر قريباً ، وهو يؤرخ بالإضافة إلى هذه المدارس المتبقية عن القرنين الأول والثاني ، لمدارس التصوف في القرنين الثالث والرابع .

ولست أدعي أنني أحطت بكل شيء عن تلك المدارس الزهدية التي عرضت لها . ولكنني حاولت أن أقدم صورة واضحة لتطور الحياة الروحية في الإسلام في هذه الحقبة الأولى . . . وكنت أتمنى أن يتسع الكتاب لجميع مدارسها ، وأن يمحو النظريات كلها التي انبثقت عن هذه الحقبة ، ولكن شاء حيز الكتاب أن تتوقف عند هذا الحد ، كما قلت . وأرجو أن أقدمه للقارئ في الجزء التالي . . .

والله ولي التوفيق

دكتور
علي سامي النشار

أستاذ كرمي الفلسفة الإسلامية
بكلية الآداب . جامعة الإسكندرية

الإسكندرية في ٦ ربيع الآخر عام ١٣٨٩
٢١ يونيو عام ١٩٦٩